Enzo Traverso: La fin de la modernite

Juvi Juive. Paris, La decoverte, 2013 , 190 pages

نهاية الحداثة اليهودية

د. فيصل دراج

أصدر أنزو ترايفرسو عام ١٩٩٠ كتابه الهام : "الماركسيون والمسألة اليهودية"، الذي أظهر فيه معرفة واسعة بتاريخ الثقافة الأوروبية، والوجه الماركسي منها بشكل خاص، الذي احتل فيه اليهود موقعاً متميزاً، بدءاً بماركس ومروراً بجورج لوكاتش، وانتهاء بهربرت ماركوزه، الألماني الذي انتهى إلى الولايات المتحدة، والفرنسي مكسيم رودونسون، الذي نشر كتاباً شهيراً عن شخصية النبي العربي. ومهما يكن المنظور الذي عالج به الماركسيون المسألة اليهودية، فقد كان دور اليهود واضحاً في "الدوائر الماركسية"، كما لو كان "حس المثقفين اليهود النقدي" هو الذي دفعهم إلى الماركسية، أو كان خطابها النقدي الشامل هو الذي جذبهم إليها، كما يوحي المؤلف. بدا المثقف اليهودي، في الحالين، متمرداً ـ إن صح القول ـ يرفض الواقع الرأسمالي المسيطر ويدعو إلى بديل. وزاد الأمر وضوحاً "الثقل النظري" للمثقفين اليهود: ارنست بلوخ ولوكاتش في الفلسفة، روزا لوكسمبورغ في الاقتصاد والسياسة، وتروتسكي المنظّر والقائد السياسي، فالتر بنيامين ومدرسة فرانكفورت الشهيرة، وصولاً إلى لوسيان جولدمان، عالم اجتماع الأدب، وإيريك فروم في علم النفس، ....

يدور كتاب ترايفرسو "نهاية الحداثة اليهودية" حول فكرتين أساسيتين،تقول الأولى منهما: إن المثقفين اليهود لعبوا دوراً نقدياً من القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بقدر ما انجذب "اليهود" جميعاً إلى مظاهر الحداثة الاجتماعية: الاستقرار في المدن، الحراك الاجتماعي، التعددية اللغوية والتنقل بين بلدان مختلفة، والنزوع إلى الثقافة والاندراج في مجتمعاتهم وتمثل

حضارتها. أما الفكرة الثانية فتقول : آثر المثقفون اليهود، بعد منتصف القرن العشرين، الابتعاد عن التمرد والاندراج في المؤسسات الرأسمالية المسيطرة. فبعد أن أسهموا في تحويل الفكر التنويري إلى أممية اشتراكية، حال دورهم في الأحزاب الشيوعية، عادوا فانخرطوا في الفكر المسيطر، حال المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، الذين احترفوا معاداة الشيوعية والحركات اليسارية.

ترافق هذا التحول بتبدلات في أمكنة الإقامة ومواقع "اللجوء"، فلم تعد أوروبا هي مركز الفعل الثقافي اليهودي، الذي اختار الولايات المتحدة وإسرائيل. أكثر من ذلك أن المثقف اليهودي، الذي بدا ثائراً وكوزموبوليتياً في طور معين، ونموذجه الأوضح ليون تروتسكي، أخذ دوره، لاحقاً، مثقفاً محافظاً وشديد المحافظة، حال هنري كيسنجر، على سبيل المثال.

وزّع المؤلف، وبشكل قلق، أسباب تحولات المثقف اليهودي، على مواضيع ثلاثة: ذيوع صورة "الهولوكوست"، التي حشرت "اليهود جميعاً" في زاوية معينة، في الحقبة النازية، وأرادت أن تشعل بهم النار، كما لو كان اليهودي يعرّف بيهوديته قبل فكره النظري وخياره السياسي. أما السبب الثاني فصدر عن نشوء "دولة إسرائيل"، حيث بدا لليهودي أن له دولة تفصل بينه وبين غيره من المثقفين. يقول ترايفرسو: "وضعت إسرائيل نهاية للحداثة اليهودية. ص : ١٤٧"، ذلك أنها نقلت اضطهاد اليهودي إلى الشعب الفلسطيني بأكمله، وجعلت المثقفين اليهود أو غالبيتهم، يبتعدون عن حلم المجتمع الإنساني العادل، ويقبلون، ولو نسبياً، بالدولة الإسرائيلية، ويقبلون أكثر بالسياسات الغربية التي اقتلعت الفلسطينيين من وطنهم. ويرجع السبب الثالث إلى نزوع اللاسامية إلى الانطفاء (ص : ١٠٧) فبعد أن كانت اللاسامية، وفي أوروبا الغربية بشكل خاص، ظاهرة اجتماعية، فإن صورة الهولوكوست، كما "ولادة إسرائيل"، همش انتشارها تهميشاً ملحوظاً.

لا ينسى المؤلف أيضاً أن يشرح تراجع اللاسامية بظاهرة "الرهاب من الإسلام"، التي صعدت في الغرب الرأسمالي في العقود الأخيرة. ومهما تكن أسبابه، فإن في موقف المثقفين اليهود منه، بشكل عام، ما يضيء قول المؤلف عن انتقالهم من محاربة الرأسمالية إلى محاربة ما يعارضها، وآية ذلك "الفلاسفة الجدد في فرنسا"، وغالبيتهم من اليهود، الذين اختصروا، في الربع الأخير من القرن الماضي، كتاب "رأس المال" لماركس في صيغة المعتقلات الستالينية (الجولاج)، حتى بدت الماركسية في ذاتها نظيراً للاستبداد. ولعل هذا الدور هو ما حوّل أندريه غلوكسمان، كما هنري ليفي، إلى نجمين ثقافيين "متعولمين"، يذيعان الأفكار المعادية للشيوعية في جملة من عواصم العالم.

يأتي النقد الأول لعمل ترافيرسو، وهو كتاب مجتهد منير معادٍ للعنصرية، من عمومية المصطلح، التي تساوي بين اليهود بعامة والمنظور الحداثي للعالم. ذلك أن هذه العمومية تنسى دور اليهود،

مثقفين كانوا أو سياسيين، في المؤسسات السياسية والاقتصادية الغربية. فقد كان البريطاني ديزرائيللي رجل دولة متنفّذاً في نهاية القرن التاسع عشر، وهناك رجل الاقتصاد "روتشيلد"، الذي لعب دوراً متميزاً في استعمار فلسطين. ولعل موقف ترافيرسو المضطرب هو الذي أجبره على الإشارة إلى اندراج اليهود في الطبقات المسيطرة، منذ نهاية القرن التاسع عشر، في فرنسا وبريطانيا وغيرهما. فقد كان في الجمهورية الفرنسية الثالثة مكان لخبراء يهود وأعضاء في البرلمان ووزراء ورجال أموال واقتصاد. كما أن النخبة اليهودية دعمت اليمين الإيطالي عام ١٩٢٢ واقتربت من الفاشية. ولم يكن الحال مختلفاً في ألمانيا قبل صعود النازية، ناهيك أن دور اليهود المحافظ في الولايات المتحدة، الذي ساوق القرن العشرين من بداياته إلى اليوم. وعلى هذا فإن ما يدعى بالحداثة اليهودية المفترضة، لم تقتصر على مثقفين يهود "متمردين"، بل كان فيها مثقفون احترفوا المحافظة ومجابهة الحركات النقدية والثورة. أكثر من ذلك أن اليهود لا يختصرون في مقولة "المثقفين"، فقد انتشروا، منذ قرون، في المؤسسات الاقتصادية والمالية. ولهذا فإن تفسير "نهاية الحداثة اليهودية" بصعود كراهية الإسلام في الغرب لا معنى له، ذلك أن هذه الحداثة مجرد افتراض نظري ينجذب إلى ماركس والماركسية، وينسى البنى الاقتصادية والسياسية الرأسمالية، التي لعب اليهود فيها دوراً نشطاً.

ولا يستقيم القول تماماً حين ربط "نهاية الحداثة المفترضة" بتراجع اللاسامية، التي أخذ مكانها "رهاب الإسلام"، فهذه اللاسامية لا تزال مزدهرة في بلدان أوروبية كثيرة، مثل ألمانيا والنمسا واليونان. ولعل إدراك مؤلف الكتاب لتناقضاته المتعددة، هو الذي يدفعه إلى الحديث عن "كراهية اليهودية"، كبديل عن اللاسامية، على اعتبار أن في الأخيرة أصداء من "الماضي"، وأنه من الأفضل الاستعاضة عنها بمصطلح جديد!؟.

قاد تصور "الخصوصية اليهودية" المؤلف، إلى فصل المثقفين اليهود عن غيرهم، معتبراً أن نهاية الحداثة اليهودية صادرة عن أسباب خاصة بالمثقفين اليهود، ناسياً أن النزوع الثقافي الكوني، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، كما صعود العولمة، ينطبق على المثقفين اليهود وغيرهم. فالابتعاد عن الماركسية ليس شأناً خاصاً بالمثقفين اليهود، إنما يشمل المثقفين، بشكل عام، حيث ذهب البعض إلى الليبرالية، واكتفى بعض آخر بأشكال مختلفة من الزهد والإحباط، إضافة إلى فئة ثالثة رأت في الثقافة عملاً تقنياً مرجعه العرض والطلب. ولذلك كان عادياً أن ينصرف المثقفون اليهود عن الماركسية و "فلسفات التمرد"، وأن يتبقى منهم، حال غيرهم من المثقفين، عدد محدود، اعتنق الماركسية منذ زمن طويل، حال المؤرخ البريطاني الشهير إريك هبسباوم، الذي رحل وقد جاوز التسعين، أو عالم اللغة الأمريكي ناحوم تشومسكي، وهو عجوز آخر، احترف معاداة السياسة الأمريكية. أو بعض الفلاسفة الفرنسيين، الذي انضموا إلى الحزب الشيوعي في الستينات الراحلة،

وانفصلوا عنه لاحقاً، مثل جاك بيديه وإيتين باليبار، وذلك الاقتصادي الأمريكي العجوز: إيمانويل فالتر شتاين،....

وواقع الأمر أن في خطاب ترايفرسو ما يوحي بأن كل يهودي، قبل منتصف القرن العشرين، كان حداثياً، وأن كل يهودي ماركسي كان ماركسياً متسقاً، كما لو كانت حداثة اليهودي، كما ماركسيته، من جوهره اليهودي. وهو كلام أقرب إلى الميتافيزيقا. ربما يكون في الماركسيين الذين انشقوا عن أحزابهم الشيوعية في أوروبا الشرقية، بعد حرب ١٩٦٧، ما يعطي صورة عن "ماركسية براجماتية"، تنتسب إلى الماركسية وإلى مصالح "الدولة اليهودية" معاً. والأمثلة في هذا المجال كثيرة، ليست أكثرها شهرة "مدرسة بودابست"، التي كان أعضاؤها ماركسيين "متشددين" فترة، وانتهت إلى "مدرسة منفلتة"، تعطف الرأسمالية على الصهيونية وتوحّد بين الديمقراطية والتعصب اليهودي، وتحتاج إلى ماركس في "تقميشات نظرية" بين حين وآخر.

ربما يكون في جملة "وضع قيام دولة إسرائيل نهاية للحداثة اليهودية" ما يثير أكثر من السؤال: ففي هذه الأطروحة بعد نقدي صحيح، "فلا حداثة مع استعمار"، وفيها أيضاً التباس أكيد، ذلك أن اليهود المستوطنين بدأوا بمصادرة الأراضي الفلسطينية قبل قيام إسرائيل بعدة عقود. مع ذلك، فإن موقف ترايفرسو يقوّض أطروحات صهيونية، أو متقاطعة معها، عاشت زمناً طويلاً، اعتبر أنصارها أن الدعوة إلى دولة يهودية موقفاً حداثياً، يتفق مع صعود الوعي القومي في أوروبا، الذي جسّد ذاته في دول قومية. إذ كان في خطاب ترايفرسو ما يضعف المزاعم الصهيونية، فإن في ممارسات الدولة الصهيونية ما يقوّض كلياً دعاوى التحرر والاستقلال الوطني وبناء "الوطن القومي".